

## المنظومة الصحية الفرنسية والمشروع الاستعماري للجزائر خلال القرن 19

### "المظاهر والأبعاد"

#### The french Heath system and the colonial Project in Algeria during the 19 Century- Manifestations and dimensions

بكري عبد القادر ♦

جامعة ابن خلدون-تيارت ABDELKADER.BEKKARI@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2023/09/19 تاريخ القبول: 2024/01/28 تاريخ النشر: 2024/01/31

**المخلص:** إن دراسة موضوع الطب في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية يمثل جانبا مهما من جوانب التاريخ الوطني الجزائري، حيث تعد الحالة الصحية مرآة للأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزائر خلال القرن 19م، لأن هذه الفترة شكلت الأساس الرئيسي في تاريخ العهد الاستعماري الفرنسي بالجزائر، وذلك بتضافر جهود كل الأطراف العسكرية والمدنية في تثبيت وجوده بالجزائر. لقد أدركت الدولة الفرنسية منذ البداية ضرورة الاستعانة بالجهاز الصحي، وذلك من خلال التجنيد المبكر للأطباء في المتروبول، لأن حاجتها لهم كانت أكبر أو تساوي حاجتها للعسكري، بالنظر للصورة القاتمة للأوضاع الصحية التي تم التشهير بها في الجزائر قبل الاحتلال من قبل الجواسيس وتقاريرهم، والتي تضمنت الانتشار الواسع للأمراض والأوبئة الفتاكة في مدينة الجزائر خاصة. ومما لا شك فيه، أن المنظومة الصحية الفرنسية كان لها دور بارز في ذلك، فما قدمه الأطباء من رعاية وعناية للجيش الفرنسي خلال حروبه التوسعية بإنشاء المشافي الثابتة والمتنقلة، واختراع الأدوية المضادة للأمراض والأوبئة، هو ما ميز الكثير من الأطباء الذين حاولوا الكشف عن حقيقة الأوضاع الصحية بالجزائر خلال تلك الفترة، معتمدين على قدراتهم ومهنتهم في التحدي للظروف المناخية والأمراض الوبائية المعقدة. وإذا كانت الدراسات المحلية حول موضوع الطب في الجزائر خلال العهد الاستعماري قليلة جدا، ولم تتناول إلا جوانب معينة، فإن الباحثين الفرنسيين افردوا دراسات واسعة تناولت الموضوع من زوايا مختلفة ومتعددة، بل وحتى من بعض القيادات العسكرية العليا في جهاز الدولة آنذاك الذين شددوا على ضرورة الاعتماد على الجهاز الطبي والطبيب في التوغل الاستيطاني، وفي مقدمتهم دي بورمون قائد الحملة الفرنسية، وليوطي الإفريقي

♦ المؤلف المرسل

الذي اعتبر أن الجهود الطبية المقدمة للأهالي تبرر التوسع الاستعماري. الكلمات المفتاحية: الطب والأطباء؛ الأمراض والأوبئة؛ لوسيان بودانس؛ الاستعمار الفرنسي؛ فال دو غراس.

**Abstract :** studying the topic of médecine in algeria during the colonial period represents an important aspect of algerian national history. The health situation served as a reflection of the political and social conditions in algeria during the 19th Century. This period was the primary foundation of the colonial era in algeria with both military and civilian efforts working together to establish its presence in algeria. From the outset, the french state recognized the necessity of utilizing the healthcare system by the early recruitment of doctors in the metropolis. Their need for doctors was as significant as their need for the military, given the bleak image of health conditions that had been portrayed in algeria before the occupation by spies and their reports. These reports revealed the widespread spread of diseases and deadly epidemics, particularly in the city of algiers. undoubtedly, the french healthcare system played a prominent role in this context. The care and attention provided by doctors to the french army during its expansionist wars through the establishment of fixed and mobile hospitals, as well as the invention of medicines to combat diseases and epidemics, distinguished many doctors who attempted to uncover the reality of the health conditions in algeria during that period. They relied on their abilities and professionalism to confront the challenging climatic and infectious conditions. While local studies on the topic of medicine in colonial algeria are scarce and have only addressed specific aspects, french researchers conducted extensive studies from various angles. Even some high-ranking military leaders in the state apparatus emphasized the importance of relying on the medical system and doctors in the process of colonial expansion. Among them were leaders like De Bourmont, the commander of the french campaign in algeria, and Lyautey the african, who believed that the medical efforts provided to the local population justified colonial expansion.

**Keywords:** medicine and doctors; diseases and epidemics; Lucien Baudens ; French colonization; Val-de-grasse.

## مقدمة:

تعد دراسة الأوضاع الصحية بالجزائر خلال القرن 19م من الأهمية بمكان، والتي يستوجب الوقوف عند حيثياتها الدقيقة، لتتضح الرؤية التاريخية أكثر في ظل تضارب الآراء، واختلاف الشهادات، بين من كتبوا عن الطب في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، نافين الوجود الكلي لأي تنظيم صحي، وانعدام لأبسط شروط النظافة والوقاية، وانتشار للأمراض والأوبئة الفتاكة التي استوطنت البلد خلال فترة الوجود العثماني، وبين من أثبتوا بأن منطقة البحر المتوسط ومنذ الأزل كانت محطة للأمراض والأوبئة، تنتقل من دولة إلى أخرى، ولعل شهادة المؤرخ الروماني تروج-بونبي (l'Abbréviateur de trogue-pompée-justin) الذي ذكر بأن منطقة البحر المتوسط عرفت موجات من الأوبئة والأمراض منذ الوهلة الأولى لتأسيس قرطاجة، وأن وباء الطاعون اضطرها إلى تقديم تضحيات إنسانية كبيرة<sup>1</sup>، وبين من اعترف بالحقيقة التاريخية، وهي معاناة الشعب الجزائري من الأمراض والأوبئة حتى قبل التواجد الاستعماري الفرنسي، ولكن الأوضاع الصحية والأزمات الاجتماعية تفاقمت أكثر، وازدادت حدتها بشكل أوسع مع بداية الاحتلال الفرنسي، فقد عانت الجزائر من وطأة أمراض أخرى على غرار مرض الكوليرا (Cholera Morbus) الذي أصبح يشكل الآفة الثانية بعد وباء الطاعون. في هذا الإطار، تأتي هذه الدراسة محاولة منا استعراض لمهام المؤسسة الصحية الفرنسية الاستعمارية، ودور الأطباء العسكريين، خاصة الأوائل الذين رافقوا الحملة على الجزائر، ثم المجموعات الثانية التي توافدت تباعا للعمل في الجزائر، ومن وراءهم المشروع الاستعماري في دفع عجلة الاستيطان، وتثبيت أسسه بالجزائر، والوقوف على مدى ودعوى مساهمتهم في تحسين الأوضاع الصحية في الجزائر، والقضاء على الأوبئة والأمراض خلال القرن 19م، خاصة وأن معظمهم إن لم أقل كلهم كانوا من دعاة المشروع الاستعماري الحضاري الواجب في نظرهم، في ظل ما ادعت إليه الإدارة الاستعمارية الفرنسية كونها خصصت أكبر عدد من المنشآت الصحية، ووفرت العدد الكافي من العاملين في الصحة، وأن الجهاز الطبي وقى بواجباته بإخلاص في أداء مهامه الإنسانية الحضارية بالجزائر.

وقد اعتمدت على منهج استقرائي-استنتاجي للحقائق التاريخية المختلفة، وتحليلي لها ورد في العديد من المصادر الفرنسية خاصة، محاولة الوصول إلى تشريح للوضع الصحية بالجزائر خلال القرن 19م للإشارة فقد اعتمدت كثيرا على المراجع الفرنسية

<sup>1</sup> -Jean-Louis Guyon, histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique, Imp. Du gouvernement, Alger, 1855, p : 02

بالدرجة الأولى نظرا لكثرتها واهتمامها بالموضوع أكثر، في ظل العدد القليل من الدراسات الوطنية.

1- **المشروع الاستعماري والمنظومة الصحية الفرنسية في الجزائر**  
مارست الإدارة الاستعمارية الفرنسية كل الأساليب الترهيبية واستعملت كل المخططات الترغيبية بهدف القضاء على مقومات الشعب الجزائري، ومن بين هذه المخططات التي اعتمدتها، هي نشر تلك الصور القاتمة للأوضاع الصحية بالجزائر قبل وأثناء الحملة الفرنسية، فقد وصفوا مدينة الجزائر بنفس الصورة التي وصفها الدكتور شو (shaw) منذ مائة سنة قبل ذلك، فهي المدينة الفقيرة، والغير نظيفة، شوارعها مظلمة ورطبة، ومساكنها ضيقة وبدون تهوية، وجثث الحيوانات المتعفنة تملأ القمامات، تلك هي الحالة التي استغلتها الدولة الفرنسية كوسيلة لنقل أفكارها الامبريالية إلى الجزائر، مستخدمة مفهوم مقاومة تلك الأمراض الوبائية كأداة من ضمن أدواتها الاستعمارية العديدة التي مكنتها من احتلال الدول والشعوب.<sup>2</sup>

يذكر كلا من أوجين قرني وفرومن قيس بأنه لم يكن هناك أي تنظيم صحي بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، وان المجتمع الجزائري كان بعيد كل البعد عن التمدن، وانه كان يجب على الإدارة الفرنسية تشييد كل شيء بهذا البلد، ولا يمكن للملاحيء القليلة، وملحقات المساجد أن تسمى بمستشفيات.<sup>3</sup>

كما أن الإدارة الاستعمارية ادعت أنها جاءت لتكسر كل جهودها حفاظا على الصحة العامة، وتوفير الرعاية الطبية للجزائريين، وتبني المشافي للحفاظ على البلاد من أي عدوى، لأن الجزائريين ليسوا مؤهلين أخلاقيا بما يكفي للتخلي عنهم لمواصلة العمل الحضاري الفرنسي بالجزائر، وإذا قارنا الجزائر الحالية بالايالة القديمة خلال الفترة العثمانية لرأيت أعمالا كبيرة دشنت.<sup>4</sup>

2- واتس شلدون، الأوبئة والتاريخ- المرض والقوة والامبريالية، ترجمة وتقديم: أحمد محمود وعبد

<sup>2</sup> الجواد، مراجعة: عماد صبحي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص: 10

<sup>3</sup> - Eugène guernier et froment guieysse, l'encyclopédie coloniale et maritime- Algérie et Sahara, V1, éditeur encyclopédie de l'empire française, paris, 1948, p : 185

<sup>4</sup> Stanislas millot, la France et l'Algérie : pour défendre l'idéalisme français, Imp. De l'est Chaumont, paris, 1928, p : 05

ولكن الحقيقة التاريخية أثبتت أن المخاوف الشديدة والحوازر الكبرى التي ظلت تؤرق الدولة الاستعمارية الفرنسية منذ بداية الاحتلال، هي كيفية تأمين سلامة الجنود، وتوفير الرعاية الصحية للمستوطنين الأوائل، الأمر الذي دفع بالقيادة العسكرية خاصة، إلى الحرص الشديد على تفعيل الدور الصحي للأطباء، والاعتزاز بأعمالهم، وفي مقدمة هؤلاء دي بورمون الذي خاطب جيوشه بعد احتلال مدينة الجزائر بقوله: "أن قضية فرنسا هي قضية إنسانية، فكونوا أحسن سفيرا لمهتكم...عادلين وإنسانيين، ومن أجل الحكم على الأعمال المقدمة من الدولة الفرنسية، يكفي إجراء مقارنة لعدد سكان الجزائر بمناطق أخرى محتلة، فقد ارتفع العدد من مليونين نسمة حسب التقديرات الأولية لسنة 1830 إلى أكثر من 6 ملايين نسمة عام 1856م، ومن الذين ساهموا في هذا التطور الكبير والسريع، الجندي، المهندس، المحتل، والطبيب. فإذا كان فإذا كان الجندي فرض الاستقرار وأحي الأمن الروماني (pax romana)، فإن المهندس قد شق الطرقات، وبنى السكك الحديدية، والمحتل غرس الأرض التي تركها الرحالة الجزائري بورا، غرسها بشجائعه وبتقنياته الزراعية، فإن الطبيب سواء كان طبيب الجهاز العسكري، أو طبيب الخدمات المدنية هو الذي رسم الصورة الحقيقية لفرنسا الحضارة والتمدن بعمله الدؤوب، وبطيبة قلبه، أحي الأرواح، وغامر بحياته، وأعطى الخير للأهالي<sup>5</sup> وفي نفس السياق، ومن بين الكتابات التي وقفنا عليها أيضا، والتي تشيد بدور المنظومة الصحية والطب الفرنسي بالجزائر الذي اكتسب بعض الحقوق باعتراف الأهالي الجزائريين على حد زعمهم، ما كتبه الطبيب كالميت (Calmette) قوله "ليس من المبالغة القول بأن اكتشاف الطبيب لافيرون (Laveran) مجال طفيليات الملاريا في 6 نوفمبر 1880 بقسنطينة<sup>6</sup>، والذي دشن عهدا جديدا للأبحاث العلمية في الأمراض المعدية، وهو من أكبر الاكتشافات العلمية في الميدان الطبي الوقائي بعد عمل باستور، والذي يجعل للجزائر الفخر الكبير بان تقع هذه الاكتشافات على أراضيها، وسندرك مع مرور الزمن

<sup>5</sup> -Edmond sergent, la médecine française en Algérie, institut pasteur d'Algérie, 4è éd, Alger, 1957, p : 05

- شارل لوي الفونس لافيرون (1845-1922) طبيب عسكري فرنسي، ورائد الطب الاستوائي، صاحب الاكتشافات الطفيلية في الأمراض المعدية خاصة الملاريا، التحق بالجزائر عام 1878 وعمل كطبيب في مستشفيات بونة، قسنطينة وبسكرة، تحصل على جائزة نوبل عام 1907. ينظر: pierre

Lefebvre, l'hôpital militaire Alphonse Laveran, N°303 de Constantine, évocation et témoignages, bulletin de l'académie nationale de médecine, vol 191, n°07, 2007, pp : 1309-1315.<sup>6</sup>

النتائج المعتمدة لهذه الاكتشافات على الإنسانية، والتي يمكن أن تفوق بكثير أعمال أكبر الشخصيات السياسية"<sup>7</sup>.

أما الطبيب لويس تيسيبي (Louis Texier) فقد شدد على دور الأطباء بقوله: "لهؤلاء العمال (يقصد الأطباء والمُسعفين) اعتزاز كبير، ذوي الضمير المنقطع النظير، وفي خضم المخاطر المتزايدة باستمرار، وفي حرب لا هوادة فيها، وسواء كانوا باليونان أو في الجزائر بداية الاحتلال، فإنهم كانوا يحاربون بيد الأوبئة التي كانت تقضي على جنودنا البواسل، ويبد أخرى يكتبون مذكراتهم الهادفة إلى التألق بذكاء أكبر وبفن شريف"<sup>8</sup>. ولعلي اختتم هذه الشهادات بما قاله القائد ليوطي الإفريقي فيما بعد بأن العقبة الرئيسية التي كان على الجنود والمستوطنون التغلب عليها هي الأمراض والأوبئة، وهو الذي كتب إلى جاليني (Gallieni) قائلاً "أن فعالية الطبيب الواحد كعامل اختراق، وتحالف وتهدة، جد ناجحة لدى الساكنة المحلية، وإذا كان بإمكانك أن تبعث لي بأربعة أطباء أرجع لك أربعة فرق عسكرية"<sup>9</sup>.

إذا كانت هذه الشهادات التي أوردناها، وفي بعض أجزائها حقائق لا يمكن نكرانها، تحاول تبويض وتبرير الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر، أولاً بوصف الطب العربي الذي كان يمارس بالجزائر قبل الاحتلال بالأعمال السحرية التي تعتمد على الغيبات، وأن أطباءهم ليسوا سوى مشعوذين، لا يعرفون استعمال للأدوية سوى تضييد النزيف، وثانياً بالتهليل والفرحة الكبيرة للأهالي عند رؤية الطبيب الفرنسي الذي زرع الثقة في نفوسهم، فإن الجزء الآخر من الحقائق يثبت أن الجزائريين ظلوا متخوفين من العلاج في المستشفيات الفرنسية، واللجوء إلى الطبيب المسيحي، وأن غالبية من يأتون في طلب العلاج لا يفعلون ذلك إلا حينما يصابون بجراح لا تندمل، أو يشعرون بدنو الموت، بل ويفضلون الموت على ذلك<sup>10</sup>، بل ذهب البعض إلى حد التشكيك في تأهيل وإعداد ومصادقية الأطباء المخصّصين للجزائريين، وأنهم لا يتقاضون راتباً مقابل خدمتهم، وأن الدكتور باين (Payn) الذي دامت إقامته بالجزائر من 1855-1884 حرر خلالها تقارير عديدة

<sup>7</sup> - Edmond sergent, Ibid., p : 10

<sup>8</sup> - Louis Texier, la médecine hippocratique en Algérie, éd, Boehm et fils, Montpellier, France, 1862, p : 10

<sup>9</sup> - Edmond sergent, op-cit, p : 07

<sup>10</sup> - Yvonne Turin, affrontements culturels dans l'Algérie coloniale : écoles, médecines, religion 1830-1880, ENAL, - François Maspero, Alger : 1907, p : 150

ومفصلة حول الوضع الصحي بالجزائر، تفيد جلها بأن الحماية الصحية كانت للأوروبيين دون الجزائريين<sup>11</sup>.

وفي المقابل، نجد بعض الكتابات المحلية منها ما تشير إلى الإجراءات الصحية المتخذة من قبل السلطة الاستعمارية بنوع من الإيجابية، والتي أدت إلى التخفيف من شدة بعض الأمراض، واختفاء البعض الآخر ابتداءً من سنة 1833م<sup>12</sup>، ومنها ما ترى الموقف بالسلب، حينما تشير إلى أن اهتمام السلطة الاستعمارية بالنظام الصحي وبتطويره، كان الهدف منه بسط النفوذ والسيطرة على كامل التراب الوطني، وكسب تأييد السكان لتسهيل الهيمنة والاستيطان، حيث وابتداءً من سنة 1845م حاولت الإدارة الاستعمارية وتحت غطاء العمل الخيري كسب صداقة الأهالي، بتقديم المساعدة الطبية كالتطعيم، وتسليم الأدوية مجاناً<sup>13</sup>.

وبين هذه الآراء المختلفة الاتجاهات، المؤيدة من جهة، والرافضة من جهة أخرى لها قامت به الإدارة الاستعمارية في الميدان الطبي، استعرض هاتين الشهادتين في سياق وشهد شاهد من أهلها، كموقف يلخص لنا الموقف الوسط، حيث يقول بلانجيني (Blangini) "ابتداءً من سنة 1851 بدأت تتضح نوايا وأهداف المصلحة الطبية أكثر في المكاتب العربية، فالضابط الطبي في اعتقادي من العناصر الأكثر فائدة للمكاتب العربية، فهو الذي يستطيع أفضل من غيره، وبحكم أنه مقبول وسط العائلات أن يثمن عناية حكومتنا اللطيفة، وكذا مكافحة الأحكام المسبقة، وتمهيد الطريق لإعادة تكوين الشعب العربي من خلال تحطيم النفور الغريزي للمسلم اتجاه المسيحي"، أما الدكتور برتران (Berthrand) الذي قام بجولات عديدة في الجزائر، وصل إلى نتيجة مفادها أنه من المستحسن تركهم يصلون إلى إدراكها بمحض إرادتهم<sup>14</sup>.

## 2- الأطباء الفرنسيون في الجزائر خلال العهد الاستعماري

يرى رايمون فيري أنه عندما أنشئ الجيش الإفريقي كانت ساحة المعركة الحقيقية هي المستشفى، لأن الأطباء حملوا على عاتقهم ومنذ السنوات الأولى للاحتلال مهام محاربة

<sup>11</sup> -Ibid., p : 78

فلة موساوي القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1871-1518، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2005، ص: 123.

مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2014، ص: 191.

<sup>14</sup> -Yvonne Turin, op-cit, p :345

الأمراض والأوبئة، خاصة الملاريا التي شكلت العائق الأكبر لإنجاح الحملة العسكرية، وتسهيل استقرار العنصر الأوربي بالجزائر. وبالقضاء على هذا الوباء سنة 1850 يكون الاحتلال الفرنسي قطع شوطا مهما في التوغل إلى العديد من المناطق الداخلية الجزائرية، ويكون قد قضى على معظم وأكبر المقاومات الشعبية الوطنية، وفي مقدمتها مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847م، وتكون بذلك أيضا مجهودات المنظومة الصحية قد وضعت على الطريق انتصار نهائي للاحتلال<sup>15</sup>.

من الأسباب التي دفعتني إلى اختيار الطبيبين بودانس ومايو من بين المئات من الأطباء الذين وفدوا إلى الجزائر وعملوا بمقاطعاتها، سواء مع الحملة التي قادها دي بورمون أو بعدها، على غرار دوليو، لوغر، فانسان، أنطوان روني، باين، كورتوا وغيرهم، أنهم من الأوائل الذين وطئت أقدامهم أرض الجزائر، عاصروا وشاركوا في الحملات العسكرية الأولى، وأنهم قدموا الكثير بابتكاراتهم واختراعاتهم الطبية للجيش الفرنسي والصحة الفرنسية عامة، وأنهم خريجي المدرسة الطبية التعليمية العسكرية بفال دو غراس بباريس، كما أنهم ولدوا في نفس السنة وهي 1804.

وحتى تتضح الرؤية أكثر، نشير إلى أن جميع الأطباء الذين التحقوا بالجزائر هم خريجي المدرسة الصحية العسكرية في ليون، حيث وبعد مناقشة مذكراتهم، يتابعون تدريب تقني قوي لفترة سنة كاملة من التطبيقات الصحية بمستشفى فال دوغراس بباريس، ثم يلتحقون بالجزائر مع بقاء شهرا كاملا للتكيف مع الظروف المناخية، والتأقلم مع الأحوال البيئية، والتعرف على الأوضاع الاجتماعية المحلية بالجزائر<sup>16</sup>.

## 1.2-جون بودانس (jeanBaudens) 1804-1857م

ولد في 3 أفريل 1804 بأر (Aires) بشمال فرنسا، زاول دراساته العليا الأولى بالمدرسة الإمبراطورية للصحة العسكرية بمدينة ستراسبورغ، ثم انتقل إلى المدرسة العسكرية بفال دو غراس (Val-de-Grace) بباريس حيث أنهى دراساته الطبية بأطروحة عنوانها "استئصال المثانة فوق العانة وخفضها إلى أعلى درجة من السهولة (Cystotomie) (sus pubienne réduite à son plus haut degré de simplicité) سنة 1829م، وفي سنة 1830 عُين ملحقا بصفة طبيب جراح ضمن الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر، فكان من الأوائل الذين وطئت أقدامهم الجزائر، والذي سوف يغادرها بعد 12 سنة من

<sup>15</sup> -Raymond ferry, 1983,p :17

<sup>16</sup> -claire Fredj, soigner une colonie naissante : les médecins de l'armée d'Afrique, les fièvres et la quinine-1830-1870, revue la découverte- le mouvement social, n°257, 2016,p :21-45.

العمل كطبيب جراح عسكري في العديد من المناطق. شارك في كل الحملات العسكرية التي خاضها الجيش الفرنسي في سنواته الأولى في مدن الجزائر ، المديّة، معسكر، تلمسان، قسنطينة وغيرها<sup>17</sup>

عُرف بنشاطه المتقطع النظير، فنال إعجاب الجميع ممن عمل معهم من العسكريين والمدنيين على السواء، خاصة بإسداله أوامر للأطباء الفرنسيين التكفل بكل الحالات المرضية مهما كان أصل صاحبها عندما عمل بمستشفى الداى بالعاصمة الجزائرية<sup>18</sup>. وفي سنة 1824م عاد إلى وطنه فرنسا لممارسة الطب والجراحة بمدينة ليل كرئيس مصلحة، ثم أصبح عضوا الصحة العسكرية بفال دو غراس بباريس، وفي سنة 1851 تمت ترقية إلى طبيب مفتش بالمصلحة نفسها، لينتقل بعدها سنة 1853م ضمن الفرق الطبية العسكرية المراقبة بسيباستبول بجزيرة القرم في عهد الإمبراطورية الثانية لنابليون أثناء حرب فرنسا وحلفائها ضد الإمبراطورية الروسية، فهياً المخيمات الصحية العسكرية، وبنى المستشفيات، خاصة وأن المنطقة عرفت انتشارا كبيرا لأمراض الكوليرا والتيفوس، لكنه لم يستمر طويلا في مهمته بعد إصابته بمرض التيفوس الذي أودى بحياته في ديسمبر 1857م<sup>19</sup>.

من أشهر أعماله، تحويل مستشفى الداى الذي أنشئ عام 1832 إلى مدرسة للتعليم الطبي، إيمانا منه بدور التعليم الصحي، سواء لاستعماله خدمة للجيش الأفريقي الفرنسي، أو لغرض الخدمة الإنسانية الفرنسية للأهالي، والذي حوله القائد كلوزيل إلى مستشفى عسكري للمستوطنة عام 1836م، كما اخترع جهاز يسمح بنقل الجرحى على الأحصنة والبغال في شكل أريكة تسمى (cacolet)، واشتهر بترميزه للتخدير بالكلوروفورم، واستعماله لمادة القهوة الحلوة التي تنتقص من ماء الحياة للمساعدة في مقاومة الاحتقان والتخدير عن طريق الكلوروفورم (codification de l'anesthésie au chloroforme). وصفه الطبيب بولات (paulette) وجاك فاريس (jacques farisse) بـ"نظير لاري الذي كان طبيب الجيش الامبراطوري (Larrey)"<sup>20</sup>.

<sup>17</sup> -Provost-Fleury(T),J.B.L.Baudens, chirurgien militaire : sa vie, son œuvre, thèse de médecine de Lyon, Lyon, 2002, p : 21

<sup>18</sup> -Victor démontes, la relation de l'expédition du docteur baudens de Médéa, Edouard champion éditeur, paris, 1921, p : 189.

<sup>19</sup> -Lucien Baudens, la guerre de Crimée : les campements, les abris, les ambulances, les hôpitaux, Michel Levy-frères, libraires-éditeurs, paris, 1858, p : 13.

<sup>20</sup> -Paul triaire, napoléon et Larrey, maison Alfred mame et fils, tours, 1902, p : 21

تولى عدة مناصب، منها جراح رئيسي للإسعافات بمدينة المديّة، معسكر، تلمسان، وأستاذ التشريح والجراحة بالمستشفى العسكري بمدينة الجزائر، وعضوا مراسل لأكاديميات الصحة بمرسيليا، ليون، مونبليي. قُلد شارة فارس جوقة الشرف في 6 جانفي 1834، وضابط جوقة الشرف في 15 جانفي 1836، وقائد فيلق جوقة الشرف في 17 أوت 1855. خلد اسمه بالعديد من المناطق منها، المستشفى العسكري القديم بمدينة وهران، وبلدية بودانس بولاية سيدي بلعباس (بلدية بالعربي اليوم)، ومستشفى بمدينة بوج (Bourges) الفرنسية والذي أغلق عام 1977م، وتمثال له بجناح الصحة العسكرية بمتحف اللوفر بباريس<sup>21</sup> له عديد المؤلفات تنوعت ما بين كتب، مقالات، رسائل، مداخلات، وكلها حول التطبيب والجراحة والتشريح، ومن أهمها:

- حرب القرم: المعسكرات، الفواصل، الإسعافات، والمستشفيات (la guerre de Crimée, les campements, les abris, les ambulances, les hôpitaux)
- دروس في الحول والتلغم في المستشفى العسكري قرو-كايو (leçons sur le strabisme et le bégaiement faites à l'hôpital du gros-caillou)
- العلاقة التاريخية لحملة تاقدمت (relation historiques de l'expédition de tagtempt)
- مذكرات العلاج الجديد للهالة المائية (mémoire sur un nouveau traitement de l'hydrocèle)
- العلاقة التاريخية والجراحية في مدينة قسنطينة (relation historique et chirurgicale de Constantine)
- القواعد الواجب اتباعها في استخدام الكلوروفورم (des règles à suivre dans l'emploi du chloroforme)<sup>22</sup>

## 2-2- قواعد التخدير حسب الطبيب بودنس

مما لا شك فيه، أن المفاهيم الصحية العصرية ارتبطت ارتباطا شديدا بالوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر، حيث شكل العشرات من الأطباء العسكريين الذين وفدوا مع الحملة العسكرية وما بعدها الركيزة الأساسية للقطاع الصحي في الجزائر، والذي اعتبرته المؤرخة أيفون توران Yvonne Turin من المهام السياسية والحضارية الإنسانية التي قامت بها فرنسا في الجزائر.

<sup>21</sup> - Lucien Baudens, clinique des plaies d'armés à feu, J-B. Baillière, paris, 1836, p : préface

<sup>22</sup> - Journal, l'industrie du nord et du Pas-de-Calais, Douai, Lille, n°02, 10 janvier 1858, 2<sup>ème</sup> année, p : 04.

من بين الأطباء الذين وضعوا أسس المنظومة الصحية الفرنسية بالجزائر، وساهموا مساهمة فعالة في القضاء على العديد من الأمراض والأوبئة، ومن أشهر مهندسي علم التخدير، بل والأكثر من ذلك، من الذين ثبتوا الوجود الفرنسي بالجزائر، الطبيب بودانس المتميز بكتاباته، وبمشاركاته في المعارك الكبرى ومنها معركتي تاقدمت عام 1836م وقسنطينة عام 1837، يذكره كورين بالمؤرخ المتميز، والمقاتل الشجاع في المواقف الأكثر صعوبة في معاركنا الاستعمارية، ومن انجازاته الطبية في الجزائر "قواعد التخدير".

من الإجراءات الاحترازية التي يركز عليها بودانس قبل استخدام التخدير "عملية الفحص الطبي" الذي يتيح البحث عن الموانع الرئيسية للتخدير، سواء برفض المريض، أو بوجود بعض الحالات المرضية كالربو، وتمدد الأوعية الدموية، الفثيسيا الرئوية، فقر الدم، الشاعرية، الكوريا، الاستعداد لآزدهام الدماغ، والكلور<sup>23</sup>. ويشير بودانس أن هذا الفحص فرصة لشرح عملية التخدير للمريض ولطمأنته من خطر التخدير، ولتحذيره من حالة الوفاة مثلا، لأنه لطالما بقيت الشكوك حول مخاطر استخدام التخدير حتى لو تم إعطاؤه بحكمة، كما يُذكر بودانس بتوفير الوسائل الهادئة والبشرية لعملية التخدير منها الغرفة الواسعة ذات التهوية السهلة، وضرورة وجود المساعدين المتخصصين في إعطاء مادة الكلوروفورم اللازمة في حالة الخطر<sup>23</sup> يجب أن يمثل التشكيل الكلوري إلى مجموعة من القواعد تجمعها هذه المواضيع الخمسة، وهي:

- 1-جرعة الكلوروفورم(عدد الغرامات التي اقترحها بودانس هي 2غرام فأكثر بعدما كانت لا تتعدى 1غرام 10 سنتيغرام)
- 2-مراقبة المريض(الرصد التنفسي، نبضات القلب، نبض وتواتر الأوعية الدموية، المراقبة العصبية رد فعل على تحفيز الجلد)
- 3-عمق التخدير( يكون صحيحا عندما يتوقف المريض عن الاستجابة ويتم قمع الشعور، وفي حالة الإفراط أو النقصان يحدث تذبذب عضلي.
- 4-مدة التخدير(فقدان الشعور، تباطؤ معدل نبضات القلب إلى أقل من 60 نبضة في الدقيقة)

---

<sup>23</sup> -Jean jacques Courtine, l'armée d'Afrique et l'anesthésie-réanimation de Baudens au corps expéditionnaire français à la première année, société française d'histoire de la médecine, 10 décembre 1983, paris, pp : 411-417.

5- ضيق الحياة (إذا لم يعد المريض يستجيب للجرعة، بكلمات غير متسقة وغير مفهومة وثرثرة طفيفة). والغرض من هذه القواعد هو سلامة التخدير لتجنب الحوادث التي يسببها الكلوروفورم<sup>24</sup>.

2-3- الطبيب فرانسوا مايو (François- maillot) 1804-1894م هو فرانسوا كليمون مايو من مواليد 18 فيفري 1804 ببريي بلاموزيل (Briey en Moselle) تابع دراسته بثانوية فابر بمتز، والتحق بعدها بالمستشفى العسكري بقلعة موزال، ثم بمستشفى فال دو غراس بباريس، عين بعدها بأجكسيو بجزيرة كورسيكا، وهناك سمحت له الفرصة بالتعرف على مختلف أعراض أنواع الحمى (المتقطعة- المتواصلة) التي أصابت الجنود. وفي سنة 1832 نُقل إلى الجزائر ليواصل عمل محاربة الأمراض وأنواع الحمى، لينقل بعدها إلى مدينة عنابة سنة 1833 لإدارة المستشفى العسكري بها، وفيها يصف الحالة الصحية بالكارثية، بحيث يذكر أن ما بين 5500 نسمة، 4000 منهم أدخلوا المستشفى، ليتوفي 300 نسمة منهم في غضون الشهرين.

عاد إلى فرنسا، وبالضبط إلى المستشفى العسكري بمتز، وبمستشفى فال دو غراس رقي إلى طبيب رئيسي من الدرجة الأولى سنة 1852، ثم طبيب مفتش، ليصبح عضوا بالمجلس الصحي الفرنسي عام 1856، ورئيسا له سنة 1864.

توفي يوم 24 جويلية 1894، وخلد اسمه في العديد من المناطق، فقد حملت بلدية مشدالة الواقعة بولاية البويرة اسمه، ومستشفى الداى بالعاصمة، والعديد من المشافي بفرنسا منها مستشفى thermal des armées<sup>25</sup> بمدينة فيشي).

قال عنه جوناكس اباي (Jonas Abeille) رجل عملاق، وباحث لا يقارن، مبتكر، واسع النطاق، عالم لا يرفض أي شيء في تجاربه من أجل اكتشاف الحقيقة، لذلك فقد توصل إلى نتائج هائلة بتجاربه المنهجية حول الفحم، كوليرا الدجاج، احمرار الخزائير، وداء الكلب الذي مكن الزراعة من إنقاذ العديد من قطعان الماشية، والذي من المحتمل مستقبلا أن يضمن علاج انتقال الداء من الحيوان إلى الإنسان، والأمل في أن يتم توفير العلاج عن طريق البراءات الوقائية مما يمكن القضاء على فيروس الكلب الذي يتطور تلقائيا<sup>26</sup>.

<sup>24</sup> - Lucien Baudens, la guerre de Crimée...op-cit, p :15.

<sup>25</sup> -Edmond sergent et Etienne sergent, histoire d'un marais algérien, institut pasteur d'Alger, Alger, 1947, p : 31.

<sup>26</sup> -abeille Jonas, Dr Maillot...et son œuvre, typo gr. C. Usinger, paris, 1888, p : 03.

تذكر جميع المصادر الفرنسية بأنه لا يمكن قياس العمل الصحي الفرنسي في الجزائر قياسا تاما، إلا إذا عرفنا درجة العجز الصحي الذي كان منغمسا فيه الطب الجزائري منذ القدم، ذلك العجز الطبي الذي أدى إلى وفاة الطبيب العسكري بسبب التيفوس وهو يكافح الأوبئة في بلد ضائع، وأستاذ شهرة عالمية مثل الطيبة رائدة ماري أنطوان (Marie Antoine) وهي تقاوم مرض العيون (Trachome) في أقصى الجنوب الجزائري، وهو أيضا هؤلاء المكتشفين من الدرجة الأولى كالطبيب مايو (Maillot)، لوگران (Legran)، أو فانسان (Vincent) مخترعي السيالتيك وأدوات الشبه الطبي، والصليب الأحمر، والراهبات، ومعهد باستور<sup>27</sup>

يرى سارف سارجون (serve segent) أن العمل الطبي الكبير والأعمال الخيرية الكثيرة التي أنجزها الأطباء العسكريون في المناطق الجنوبية الصحراوية ستكون نموذجا للأطباء الذين سوف يتولون المهام فيما بعد على نطاق واسع. وبناءً على هذه المؤشرات السابقة الذكر، نخلص إلى أن الإجراءات الوقائية المتخذة من قبل الإدارة الاستعمارية في تلك الفترة قد أدت نسبيا إلى الحد من بعض الأمراض، واختفاء أمراض أخرى، ومن هذه الإجراءات نذكر على سبيل المثال، توسيع المكاتب الصحية على مستوى المدن (بجاية، وهران، الجزائر العاصمة، عنابة)، وفرض الحجر الصحي على كل سفينة مشكوك فيها صحيا لمدة 05 أيام آتية من فرنسا، ومدة 10 أيام من دولة أخرى يجتاحها الطاعون، كما وضع مركز للوقاية بهرسييليا ضم أكثر من 270 مختص في الصحة، مهمته هيكله المصالح الصحية لتفادي انتقال الأمراض من شواطئ إفريقيا إلى الفرق العسكرية الفرنسية<sup>28</sup>.

#### خاتمة:

من خلال العرض السابق، يمكن القول بأن دراسة موضوع الطب والأطباء إبان الفترة الاستعمارية الفرنسي بالجزائر، يستلزم إجراء العديد من الدراسات والأبحاث التاريخية، كون هذه المرحلة غلبت على كل دراسات المصادر الأجنبية والفرنسية على وجه الخصوص، هذه المصادر ذات الرؤية الأحادية التي عكست في تاريخنا ما لا نراه وما لا

<sup>27</sup> - tan ouïr et adhen , la médecine et les quarantaines dans leurs rapports avec la loi musulmane, trad. : Kamal Mohamed ben Mostafa el-khodja, imp. orientale, pierre Fontana et Cie, Alger, 1896, p :04.

<sup>28</sup> - Charles André- julien, Marseille et la question d'Alger à la veille de la conquête, revue africaine, société historique algérienne, n°60, 1919, p : 17-61.

نعرفه، لأسباب مختلفة منها، صعوبة مراقبة هذه الرؤية بما نملك من مصادر ومراجع، خاصة وان الرؤية التي نظر بها الاستعمار الفرنسي للأوضاع الصحية بالجزائر لم تكن رؤية بمرآة طبيعية تعكس الحقيقة فنفيد منها، ولكنها مرآة مقعرة ومضخمة شوهت الحقائق بفعل وقوعها تحت تأثير التفوق السياسي والتطور الحضاري، وهو شعور كان كافيا لتعميق الفجوة بين الشعبين الجزائري والفرنسي، وتجعل إمكانية التقائهما في عداد الاستحالة، وهذه الاستحالة عكستها بعض أعمال القائمين على الأوضاع الصحية، وأقوال بعض الأطباء، ومنهم الطبيب العسكري بوزين (Bousin) الذي أعتبر أن الطب هو تحضير وتهديد ممنهج من جهة، ومؤسسة سياسية من جهة أخرى، بإمكانها استقطاب العرب إلينا للمساهمة في توسيع نفوذنا، وتأثيرنا السلمي على قبائل المناطق الداخلية (34: Yvonne Turin).<sup>29</sup>

كما أن هذه الدراسة جعلتني اخلص إلى النتائج والتوصيات التالية:

- أن بعض الأطباء أوفوا بواجبهم في مكافحة الأوبئة القاتلة، ومعالجة المرضى الفرنسيين خاصة، ولكن بمرور الوقت أصبح من المستحيل التكفل بالعدد الكبير من المرضى في ظل نقص المستلزمات الطبية.
- خصصت الإدارة الاستعمارية عدد من المنشآت وعدد من العاملين بها، ولكنها لم تكفي، الأمر الذي جعل قادة الجيش الفرنسي يطالبون بتأسيس نظام صحي بالجزائر على غرار ما كان موجودا بفرنسا.
- رغم تخصيص مراكز صحية للجزائريين أطلق عليها "مستشفيات الأهالي" إلا أن الجزائري ظل متخوفا منها لحين من الوقت.
- إن الإدارة الفرنسية استعملت مفهوم مقاومة الأمراض الوبائية كأداة من ضمن أدواتها الاستعمارية العديدة التي مكنتها من اختراق الدول والشعوب الضعيفة ومنها الجزائر.
- يرى مؤرخي العصر الحديث أن الطب كان وسيلة رئيسية لنقل الأفكار الامبريالية وتطبيقاتها، وان المؤسسات الطبية ما هي إلا وجوه للقوة والسيطرة لإيديولوجية مركبة بتعبيرات إنسانية.
- أن التعامل مع الأمراض والأوبئة، واستعمال تقنيات الحجر الصحي، ليس من ابتكار الحضارة الأوروبية الحديثة فقط، وإنما انسابت معارفها من الحضارة الإسلامية وانجازات الطب العربي عبر بوابات الأندلس وصقلية والحروب الصليبية.

### الهوامش والمراجع:

- 1- خياطي مصطفى، الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، الجزائر: ENAL وحدة الروبية للطباعة، 2014
- 2- شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ، المرض والقوة والامبريالية، ترجمة وتقديم: أحمد محمود عبد الجواد، مراجعة: عماد صبحي، مصر: المركز القومي للترجمة، ط1، 2010.
- 3- موساوي فلة القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1871-1518، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2005، 2.
- 4 - Baudens Lucien, la guerre de Crimée-les campements, les abris, les ambulances, les hôpitaux, paris : Michel Lévy-frères, libraires-éditeurs, 1858.
- 5-Baudens Lucien, clinique des plaies d'armés à feu, paris : imp. J-B. Baillière, libraire-éditeur, 1836.
- 6- Baudens Lucien, des règles à suivre dans l'emploi du chloroforme, paris : imp. de remquit, 1853.
- 7- Courtine J-CI, l'armée d'Afrique et l'anesthésie-réanimation de Baudens au corps expéditionnaire français à la première guerre, **société française d'histoire de la médecine**, 10 décembre 1983, p : 411-417.
- 8-Démontes Victor, la relation de l'expédition du docteur baudens, paris : Edouard champion éditeur, 1921.
- 9 - ferry Raymond, un centenaire oublié- François clément-maillot, **revue l'algérieniste**, centre de documentation des français d'Algérie. n°22, 1983, pp : 17-31.
- 10-Guyon J-L-G, **histoire chronologique des épidémies du nord de l'Afrique**, Alger : imp. du gouvernement, 1855.
- 11- Guernier Eugene et Guieysse froment, l'encyclopédie coloniale et maritime-Algérie et Sahara, paris : éditeur encyclopédie de l'empire français, V1, 1948.
- 12-julien Charles-André, Marseille et la question d'Alger à la veille

de la conquête. Revue Africaine, **société historique algérienne**, n°60, 1919, pp : 17-61.

13-Jonas abeille, docteur maillot et son œuvre, paris : typo gr .C. Usinger, 1888.

14- Journal, l'industrie du nord et du pas-de -calais, Lille : Douai, n°02, 1858.

15-millot Stanislas, la France et l'Algérie : pour défendre l'idéalisme français, paris : imp. de l'est Chaumont, 1928.

16- Provost Fleury, J-B-L Baudens, chirurgien militaire : sa vie, son œuvre, thèse de médecine, Université de Lyon, France, 2002

17-sergent Edmond, la médecine française en Algérie, Alger : institut pasteur d'Algérie, 4ème éd, 1957.

18- sergent Edmond et sergent Etienne, histoire d'un marais algérien, Alger : institut pasteur d'Algérie, 1947.

19- Tan ouïr et Adhen, la médecine et les quarantaines dans leurs rapports avec la loi musulmane, imp. orientale, pierre Fontana et Cie, Alger, 1896.

20- Texier louis, la médecine hippocratique en Algérie, Montpellier(France) : éd Boehm et fils, 1862.

21-Turin Yvonne, affrontements dans l'Algérie coloniale : écoles, médecines, religion 1830-1880, ENAL, François Maspero, 1907.

22-triaire Paul, napoléon et Larrey, tours : maison Alfred mame, 1902.